

رسائل خمسة مع استقبال العام الجديد

ونحن نستقبل عاماً ميلادياً جديداً إليكم هذه الرسائل الهامة السريعة :

الرسالة الأولى: تقارب الزمن وسرعته علامة على قرب قيام الساعة

إن تقارب الوقت والزمن وسرعة مروره علامة على قرب الساعة، فقد أخرج الترمذي عن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " لا تقوم الساعة حتى يتقارب الزمان فتكون السنة كالشهر، والشهر كالجمعة، وتكون الجمعة كاليوم، ويكون اليوم كالساعة، وتكون الساعة كالضرممة بالنار " ؛ وفي رواية "وتكون الساعة كاخترق السعفة الخوصة" أي ورق الجريد اليابس، وعن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " يتقارب الزمان ويُقبض العلم وتظهر الفتن ويلقى الشح ويكثر الهرج. قالوا: وما الهرج؟ قال القتل" (متفق عليه)؛ فهذه العلامة من علامات الساعة من أوضح العلامات وأظهرها اليوم؛ إذ أننا نشهد وقوعها اليوم ونراها واضحة جلية، فالوقت يمر على الناس بصورة سريعة تدعو للدهشة والتأمل، فلا بركة في الوقت؛ حتى يخيل إلى الواحد أن السنة كالشهر؛ والشهر كالأُسبوع؛ والأُسبوع كاليوم؛ ولا أصدق من وصف النبي صلى الله عليه وسلم. قال ابن حجر: " قد وجد ذلك في زماننا هذا ، فإننا نجد من سرعة مر الأيام ما لم نكن نجده في العصر الذي قبل عصرنا هذا . " (فتح الباري) .

قلت : كيف لو رأى زماننا اليوم !

فنحن اليوم نشهد بوضوح هذه المعاني لتقارب الزمان فلا يوجد بركة في الوقت وأصبح الناس يتحدثون عن السنوات وكأنها أشهر ناهيك عن الأيام والأسابيع !

الرسالة الثانية: عمرك في نقصان لا زيادة

مضى عام ، وكلّ منا يحتفي ويحتفل بذكرى ميلاده؛ ويوم خروجه على المعاش؛ وزيادة عام من عمره؛ والمتأمل المتبصر يعلم أنه قد نقص من عمره عام، ماذا؟!!!

نعم نقص من عمره عام، فقد يظن البعض أن عمره زاد عاماً فالعام الماضي كنت أبلغ تسعاً وثلاثين سنة، وهذا العام قد بلغت الأربعين فزاد عمري، نقول: لا، بل نقص عمرك يا مسكين!!

يقول بعضهم: كيف يفرح من يومه يهدم شهره، وشهره يهدم سنته، وسنته تهدم عمره؟! كيف يفرح من عمره يقوده إلى أجله، وحياته تقوده إلى موته؟!!

يقول الحسن البصري - رحمه الله - : "يا ابن آدم، إنما أنت أيام، إذا ذهب يوم ذهب بعضك". وقال: "يا ابن آدم، نهارك ضيفك فأحسن إليه، فإنك إن أحسنت إليه ارتحل بحمدك، وإن أسأت إليه ارتحل بدمك، وكذلك ليلتك". وقال: "الدنيا ثلاثة أيام: أما أمس فقد ذهب بما فيه، وأما غداً فلعلك لا تدركه، وأما اليوم فلك فاعمل فيه". فكل يوم يمر عليكم تزدادون بعدا من الدنيا وقربا من الآخرة فاعملوا وتزودوا لها ؛ قال علي بن أبي طالب - رضي الله عنه : ارتحلت الدنيا مدبرة ؛ وارتحلت الآخرة مقبلة ؛ ولكل واحدة منهما بنون؛ فكونوا من أبناء الآخرة؛ ولا تكونوا من أبناء الدنيا فإن اليوم عمل ولا حساب وغدا حساب ولا عمل .

أرأيت يا أخي لو أن أنسانا سافر من مدينة إلى أخرى، فإنه كلما قطع مسافة سوف تقصر المسافة التي بينه وبين تلك المدينة التي يريد الذهاب إليها؟! أرأيت إلى هذا التقييم الذي نضعه فوق مكاتبنا في بداية كل عام، إنه مليء بالأوراق، وفي كل يوم نأخذ منه ورقة واحدة فقط، وفي نهاية العام لا يبقى منه إلا الجلدة فقط .

هكذا عمري و عمرك يا أخي : مجموعة أيام، و مجموعة ليالي، كلما مضي يوم أو انقضت ليلة كلما نقصت أعمارنا، كلما نقص رصيد أيامنا في هذا الحياة حتى ينتهي ذلك الرصيد، ثم تغادر هذه الدنيا .
واه لنا ثم واه لنا، ما أشد غفلتنا عن هذه الحقيقة !!

الرسالة الثالثة : الدنيا ساعة فاجعلها طاعة

فهل فعلاً حياتك كلها وسنوات عمرك ساعة؟!!

الجواب: نعم ، عمرك كله ساعة ، وسأدلل لذلك بالمعقول والمنقول.

قال تعالى: { وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ } (الحج: 47)، فالיום بحساب الله بألف سنة من حسابنا، وأعمار هذه الأمة بين الستين والسبعين وأقلهم من يجوز ذلك.

فعمرك ستون سنة، واليوم عند الله بألف سنة، ولو قسمنا يوم الله - الألف سنة - على 24 التي هي ساعات اليوم لكانت النتيجة $1000 \div 24 = 41$ يعني ساعة إلا ثلث، لأن الثلث وقت نومك لا تحاسب عليه، فالستون سنة تساوي بحساب الله ساعة إلا ثلث، من يوم الله.

وقد ذكر الله أحوال الناس في المحشر وهم يعترفون بأن الدنيا ساعة فقال تعالى: { وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ } (يونس: 45) وقال: { كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنْ نَّهَارٍ } (الأحقاف: 35)

وقال: { وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ } (الروم: 55) وقد صرح لنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم- بذلك، فعن ابن عباسٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دَخَلَ عَلَيْهِ عُمَرُ وَهُوَ عَلَى حَصِيرٍ قَدْ أَثَرَ فِي جَنْبِهِ فَقَالَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ لَوْ اتَّخَذْتَ فِرَاشًا أَوْثَرَ مِنْ هَذَا؟ فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَا لِي وَلِلدُّنْيَا مَا مَثَلِي وَمَثَلُ الدُّنْيَا إِلَّا كَرَكَابٍ سَارَ فِي يَوْمٍ صَائِفٍ فَاسْتَظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ سَاعَةً مِّنْ نَّهَارٍ ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا " [أحمد والترمذي وصححه] .

لقد صور الرسول- صلى الله عليه وآله وسلم- في هذا الحديث طول حياة الإنسان في هذه الحياة الدنيا بمثل الفترة التي يستريح فيها المسافر تحت ظلِّ شجرة في رحلة طويلة له، وهي- بلا شك- ضئيلة جداً مقارنة بطول الرحلة نفسها.

سبيلك في الدنيا سبيلُ مسافرٍ *** ولا بُدُّ من زادٍ لكل مسافرٍ

فالمدة التي يمكثها المسافر تحت ظلِّ الشجرة لا تساوي إلا مقداراً ضئيلاً مقارنة بالمدة التي يحتاجها لقطع رحلة سفره. وهذا التصوير من قِبَل رسول الله- صلى الله عليه وآله وسلم- لا يعطينا مؤشراً بقصر مدة هذا الحياة مقارنة بالحياة الأبدية في الدار الآخرة فحسب، وإنما يعطينا مؤشراً حول تفاهة هذه الحياة وحقارتها، وأن على الإنسان ألا يعيرها اهتماماً بالغاً إلا بالمقدار الذي يحتاجه للبقاء فيها.

ومن الأدلة أيضاً، عن ابن عمر رضي الله عنهما ، قَالَ : أَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَنْكِبِي ، فَقَالَ : " كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ ، أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ " وَكَانَ ابْنُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ، يَقُولُ : إِذَا أُمْسَيْتَ فَلَا تَنْتَظِرِ الصَّبَاحَ ، وَإِذَا أَصْبَحْتَ فَلَا تَنْتَظِرِ الْمَسَاءَ ، وَخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ لِمَرَضِكَ ، وَمِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ . (رواه البخاري)

قالوا في شرح هذا الحديث معناه : لَا تَرَكْنِ إِلَى الدُّنْيَا وَلَا تَتَّخِذْهَا وَطَنًا ، وَلَا تُحَدِّثْ نَفْسَكَ بِطُولِ الْبَقَاءِ فِيهَا ، وَلَا بِالْإِعْتِنَاءِ بِهَا ، وَلَا تَتَعَلَّقْ مِنْهَا إِلَّا بِمَا يَتَعَلَّقُ بِهِ الْغَرِيبُ فِي غَيْرِ وَطَنِهِ ، وَلَا تَشْتَغِلْ فِيهَا بِمَا لَا يَشْتَغِلُ بِهِ الْغَرِيبُ الَّذِي يُرِيدُ الذَّهَابَ إِلَى أَهْلِهِ .

قال أهل السير: حضرت الوفاة نوحا عليه السلام، فقيل له يا نوح كيف وجدت الحياة؟ قال والذي نفسي بيده ما وجدت الحياة إلا كبيتٍ له بابان دخلتُ من هذا وخرجتُ من الآخر.

فيا ابنَ الستينَ والسبعين أنت ما عشت ألفَ سنة، فكيفَ تصفُ الستينَ والسبعينَ في معاصي الله، وفي انتهاكِ حدودِ الله، وفي التجرئِ على حُرْمَاتِ الله!!؟

فالإنسان في هذه الحياة الدنيا كمثل المسافر يقول ابن القيم - رحمه الله - : الناس منذ خلقوا لم يزالوا مسافرين، وليس لهم حظ رحالهم إلا في الجنة أو في النار. والعاقل يعلم أن السفر مبني على المشقة وركوب الأخطار، ومن المحال عادة أن يطلب فيه نعيم ولذة وراحة، إنما ذلك بعد انتهاء السفر. (الفوائد)

وهنا وقفة جميلة تفكرت فيها بين ولادة الإنسان ووفاته، فالمولود حين ولادته يؤذن في أذنه اليمنى وتقام الصلاة في اليسرى، ومعلوم أن كل أذان وإقامة يعقبهما صلاة، فأين الصلاة!!!؟

أقول: صلاة الجنائز ليس لها أذان ولا إقامة لأنه قد أذن وأقيم لها عند ولادتك والفترة التي بين الأذان والإقامة والصلاة كفترة عمرك في الدنيا.

ومما يدل على قصر عمرك وأنه ساعة بحساب الله، بعثة النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَعَنْ أَنَسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ قَالَ وَضَمَّ السَّبَابَةَ وَالْوُسْطَى " (مسلم) ، فأنت ترى أن النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ضم السبابة والوسطى ولم يفصل بينهما، ومعنى ذلك: أن القيامة مقرونة ببعثته وقد بعث منذ أكثر من 1435 سنة فلماذا لم تقم الساعة!!؟

أقول: أن اليوم بحساب الله بألف سنة من حسابنا - كما ذكرنا - وأن 1435 سنة لم تكمل يوماً ونصف يوم بحساب الله، ومن الممكن أن تقوم الساعة بعد 5 أو 6 أو 7 أيام بحساب الله، فلو قلت لك القيامة ستقوم بعد أسبوع من بعثة النبي فإن الأسبوع بالنسبة لنا قليل ويمر بسرعة ولكنه بحساب الله سبعة آلاف سنة ، وأن الستين سنة تساوي ساعة، وبذلك أثبتُّ لك بالمعقول والمنقول أن عمرك ساعة!!!

وبما أننا جميعاً مقرِّون بأن الدنيا ساعة، وأننا لم نخلق عبثاً وأن أعمارنا تمضي سريعة في بحر متقلب بأفراحه ومتاعبه وأحزانه فلماذا لا نسارع إلى تغيير أنفسنا في عامنا الجديد ونصحح أخطاء ما مضى وانطوى من ماضينا القديم ولنجعل عامنا هذا عاماً غير وخير لنا وللأمة جمعاء ... ومن أراد أن يكون أسعد الناس وأحسنهم فليغتتم كل حياته وأيامه ولياليه بحسن العمل الذي يرضي الله تعالى؛ فعن أبي صفوان عبد الله بن بسر الأسلمي، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " خير الناس من طال عمره وحسن عمله " (رواه الترمذي، وقال: حديث حسن) .

الرسالة الرابعة: بداية الصفحة وآخرها..

ابدأ يومك .. ابدأ شهرك .. ابدأ عامك .. بطاعة واختمه بطاعة، فالبدايات والخواتيم عليها مدار الفوز والخسارة .. ابدأ يومك بصلاة فجر أو قيام سحر، واختمه بنوم على سلامة صدر وطهارة بدن، فلو كان أول سطر في صحيفتك خيرا وآخر سطر فيها خيرا لمحا الله لك ما بينهما، وأنا أستبشر هنا ببشارة حبيبنا صلى الله عليه وسلم : «الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان: مكفّراتٌ ما بينهن إذا اجْتَنِبْتَ الكبائر» . (مسلم) .

وإذا كان كتاب عمرك أول سطر فيه أذانٌ قرع أذنك عقب ولادتك، فاستبشر بأن يكون آخر سطر فيه إن شاء الله كلمة التوحيد ينطق بها لسانك، لتكون جواز عبورك إلى الجنة.

الرسالة الخامسة: هيا قبل أن تندم ولا ينفحك ندم

فقد كان السلف الصالح لا يندمون إلا على فوات الوقت الذي لم يرفعهم درجة، قال ابن مسعود: “ما ندمت على شيء ندمي على يوم غربت شمسه، نقص فيه أجلي، ولم يزد فيه عملي” .

فهيأ قبل أن تندم ولا ينفحك الندم؛ فقد وقف الحسن البصري على جنازة رجلٍ فقال لصاحب له يعظه: تُرى هذا الميت لو رجع إلى الدنيا ماذا يصنع؟! قال: يكثر من الطاعات؛ قال له الحسن: قد فاتته فلا تفتك أنت!! أقول لكم أيها المسلمون: قد فاتت من كان قبلكم؛ والفرصة ماثلة أمامكم فماذا أنتم فاعلون!!

لذلك شكى وبكى الصالحون والطالحون ضيقَ العمر، وبكى الأخيارُ والفجارُ انصرامَ الأوقات، فأما الأخيارُ فبكوا وندموا على أنهم ما تزودوا أكثر، وأما الفجارُ فتأسفوا على ما فعلوا في الأيام الخالية. فعن أبي هريرة يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ” مَا مِنْ أَحَدٍ يَمُوتُ إِلَّا نَدِمَ . قَالُوا وَمَا نَدَامَتُهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟! قَالَ: إِنْ كَانَ مُحْسِنًا نَدِمَ أَنْ لَا يَكُونَ أَزْدَادَ ، وَإِنْ كَانَ مُسِيئًا نَدِمَ أَنْ لَا يَكُونَ نَزْعَ ” (الترمذي وابن

المبارك في الزهد)؛ ويوم القيامة تندم وتقول: { يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي } (الفجر: 24)، قال: ل(حياتي) ..

ولم يقل: (في حياتي).. كأن حياته لم تبدأ بعد.. الحياة الحقيقية هي الآخرة.. يقول: الإمام الفخر الرازي: (يا

ليتني قدمت) في الدنيا التي كانت حياتي فيها منقطعة لحياتي هذه التي هي دائمة غير منقطعة ، وإنما قال :

(لحياتي) ولم يقل : ” لهذه الحياة ” على معنى أن الحياة كأنها ليست إلا الحياة في الدار الآخرة ، قال

تعالى : { وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ } .

[العنكبوت : 64] أي هي الحياة . (مفاتيح الغيب) .

فبادر أخي المسلم باغتنام أوقات عمرك في طاعة الله، واحذر من التسويف والكسل، فكم في المقابر من قتيل سوف . والتسويف سيف يقطع المرء عن استغلال أنفاسه في طاعة ربه، فاحذر أن تكون من قتلاه وضحاياه .

نسأل الله أن يبارك في أوقاتنا وأعمارنا.....